المحاضرة الحادية عشر: النظرية الإشارية و التصورية

يعود فضل تطوير هذه النظرية إلى رائديها "أوجدين" و"رتشاردز" في كتابهما: "معنى المعنى"، وتعتمد هذه النظرية في تحديدها للمعنى على ثلاثة أسس: الفكرة، والرمز، والمرجع، ويكون معنى الكلمة بالارتكان إلى هذه الأسس هو ما تشير إليه في العالم الواقعي، بعبارة أوضح: مرجعها في العالم الخارجي.

- النظرية السلوكية:

تركز النظرية السلوكية على ما يمكن ملاحظته من اللغة؛ لذلك كان المعنى متساوقًا مع أسسها، ويجمله القول التالي: "يتألَّف من ملامح ورد الفعل القابلة للملاحظة، وأن معنى الصيغة اللغوية هو الموقف الذي ينطقها المتكلم فيه، والاستجابة التي تستدعيها من السامع" ؛ أي إن معنى العبارة هو الحافز الذي يدعو إلى التلفظ بها، أو الاستجابة التي يستدعيها السامع، وبالتالي فالسلوكية تربط المعنى بالمواقف خارج اللغوية، الأمر يوضح موقفها المعارض للغة الداخلية، وقد قام شارلز موريس أحد رواد السلوكية باستبدال الاستجابة بالميل أو الرغبة، إلا أن الأمر لم يتغير بدعوى أن الميل والرغبة من الممكن أن يرتبطا بإرادة الشخص من عدمها.

-النظرية السياقية:

ترى هذه النظريةُ أن معنى الكلمة هو الدور - أو الوظيفة - الذي تؤديه في علاقتها بباقي الكلمات المجاورة لها في السياق، وقد تعددت السياقات التي يمكن للكلمة أن ترِدَ فيها بين اللغوي، والعاطفي، والثقافي، والموقفي.

-نظرية الحقول الدلالية:

تعتبر هذه النظرية أن معنى الكلمة هو حصيلة علاقتها بباقي الكلمات التي تترابط معها دلاليًّا داخل الحقل الدلالي الواحد، وتتباين هذه العلاقات بين الترادف، والتباين، والتضاد، والتضمن.. إلخ.

تحصيل المعنى في النظرية التصورية:

شهِد التفكير الدلالي مجموعة من النظريات التي تبحث في المعنى وترصده، فتعددت معها تصوراتها له، بين من يرى المعنى كيانًا داخليًّا، وبين مَن يذهب إلى اعتباره وليدَ علاقة بين اللغة والعالم الخارجي.

وتُعَد النظرية التصورية من النظريات الدلالية التي عُنِيَتْ بالمعنى دراسة وتحليلًا، معتبرة إياه كيانًا نفسيًّا لا خارجيًّا، وعليه، كيف فسرت النظرية التصورية إشكال المعنى؟ وما أبرز المبادئ والمسلَّمات التي بنَتْ عليها تصورها؟ وما أهم القيود المتحكمة في ذلك؟ ثم ما هي أبرز الانتقادات التي وُجِّهت إليها؟

-مفهوم النظرية التصورية وتحديدها للمعنى:

تعتبر النظرية التصورية "المعنى موضوعًا نفسيًّا، وأن بناء معاني التعابير اللغوية ليس إلا جزءًا من العمليات النفسية أو الذهنية التي تقوم عليها القدرة اللغوية الباطنية لدى المتكلم" ، بعبارة أجلى: تحاول الوقوف على القواعد المستبطنة في الذهن، المنظمة للمعارف، هذا القول إنما يتقاطع مع النظرية التوليدية النفسية، التي تحاول أن تبحث وتفسِّر تلك القدرة اللغوية البشرية، خاصة مع تلاميذ تشومسكي، في إطار ما عُرف بالدلالة التأويلية، ففودور اعتبر المعنى هو تلك الصورة الذهنية التي تكون في الذهن عن ذلك الشيء، وإلى ذلك جاء ديكارت بمثال "الأعمى الذي يستخدم العصا قصد اللمس المتتالي لعدد من أجزاء شيء فيزيائي كالمكعب، وبَيَّنَ من خلال هذا المثال أن السلسلة من اللمسات تسمح للأعمى ببناء صورة لمكعب في ذهنه، دون أن يعني ذلك أن صورةَ المكعب منطبعة فيه، بمعنى أن الذهن يَبني بواسطة مصادره ومبادئه البنيوية الخاصة تمثيلًا ذهنيًّا، انطلاقًا مِن هذه المتوالية من المنبِّهات اللمسية".

وبالتالي، "فالدلالة التأويلية افتراض حول القدرة اللغوية باعتبارها قدرة نفسية، وهو افتراض يعالج دلالة التعابير اللغوية، وإحالاتها في إطار تصور نفسي صريح، والإحالة على الأشياء ترتبط بالصور الذهنية التي يكوّنها المتكلم عن هذه الأشياء، وهذه التصورات توجد في ذهن الفرد، لا في الواقع، إنها كيانات تصورية يخلقها الفرد عند تأويله لتجرِبته".

وإن تركيز هذه النظرية على الأفكار والتصورات الداخلية جعلها تسمى بالنظرية العقلية

كذلك، هذه التسمية تعود إلى العالم الإنجليزي "جون لوك" الذي قال: إن "استعمال الكلمات يجب أن يكون الإشارة الحساسة إلى الأفكار، والأفكار التي تمثلها تعد مغزاها المباشر الخاص" ، وتعتبر هذه النظرية اللغة وسيلة/ أداة لتوصيل الأفكار، وتمثيلًا خارجيًّا ومعنويًّا لحالة ذهنية، وإلى ذلك أقر رواد هذا التيار النفسي، النظرية التصورية، بأن لكل فكرة معنى، وهذه الفكرة يجب:

" ♦أن تكون حاضرة في ذهن المتكلم

♦المتكلم يجب أن ينتج التعبير الذي يجعل الجمهور يدرك أن الفكرة المعينة موجودة في عقله ذلك الوقت.

♦التعبير يجب أن يستدعي الفكرة في عقل السامع".

-مبادئ ومسلَّمات النظرية التصورية:

ترتكز النظرية التصورية على مبدأ عام: "يكون للعبارة معنى إذا - وفقط إذا - ارتبطت بفكرة ما، ويكون لعبارتين نفس المعنى إذا - وفقط إذا - ارتبطتا بنفس الفكرة" ، تكون الفكرة بهذا القول هي الصورة الذهنية، أو التخيل الذهني الذي يختلف في نوعه وطبيعته من شخص لآخر، وهذه المسألة تُثبت قضية أخرى، هي مسألة المعجم الذهني الخاص بالفرد؛ إذ إن كل فرد يملِك معجمًا خاصًّا به لا يشبه بالضرورة الآخرين.

وعليه، فالنظرية التصورية ترى في مسلَّمتها أن المعنى الموجود هو معلومات مرمزة وممثلة في الذهن البشري، والتمثيل لا يعكس الشيء الموجود في العالم الخارجي، وإنما يمثِّل جزءًا من التمثيل الذهني للدخل الخارجي؛ لذلك كان التمثيل هو ذلك العالم، كما حددته بنية الذهن؛ فالإنسان لا يتحدث عن أشياء إلا وله انطباع وتمثيل عنها في ذهنه، وفي نهاية المطاف، فإننا نتحدث عن مَقْوَلةٍ للواقع؛ أي: عن ترميز للمعلومات في الدماغ، وحينما يحصل ذلك الترميز يكون قد حصل التمثُّل، وبالتالي، فالترميز آلية من آليات التمثُّل.

-قيود النظرية التصورية:

"تخضع النظرية التصورية لمجموعة من القيود التي تضمن سلامة التصور، ومن

بينها: قيد التعبيرية، ويتعلَّق بقدرة النظرية على التعبير عن الفروق الدلالية التي تقيمها اللغات الطبيعة، وقيد الكلية، ويتعلق بكلية مخزون البنيات الدلالية الذي تستعمله اللغات الخاصة، وقيد التأليفية، ويتعلق ببناء معاني الجمل انطلاقًا من معاني أجزائها، وقيد الخصائص الدلالية، ويتعلق برصد الخصائص الدلالية في التعابير اللغوية بالترادف والشذوذ الدلالي والاقتضاء، ثم قيد الحاسوبية، ويتعلَّق بقبول البرمجة الحاسوبية".

وعمومًا، فالنظرية التصورية تخضع لقيدين مهمين، هما: القيد النحوي، "ويقول هذا القيد: إنه يجب تفضيلُ نظرية دلالية تفسر التعميمات الموجودة في كل من المعجم والتركيب، على اعتبار أن المعجم يعطينا المحتوى، والتركيب يعطينا الشكل الصوري الملائم لهذا المحتوى" ، وهو بهذا يصُوغ علاقة اعتباطية بين الدلالة والتركيب؛ أي: إنه يفسر ذلك التعالق بين المستويين، خاصة في مسألة تعليم وتعلُّم اللغات؛ إذ لا يمكن أن نُدرِّس التركيب صوريًّا بدون معنى، ثم القيد المعرفي، ومُفاده: أن نظرية البنية الدلالية في اللغة الطبيعية هي في حد ذاتها نظرية لبنية الفكر، وبهذا المعنى تكون اللغة تعكس الفكر، مما يفرض تلاءم المعلومات التي تحملها اللغة مع المعلومات الصادرة من المحيط.